دور العرب العمانيين في تحرير ساحل شرق إفريقيا من التواجد الاستعماري البرتغالي (1655-1730)

الأستاذ : بوسليماني عبد الرحمان
قسم العلوم الإنسانية
جامعة البليدة 2-لونيسي علي

ملخص:

تعالج هذه الدراسة الدور الكبير الذي قام به العرب العمانيون في تحرير الساحل الشرقي لإفريقيا والجزر المقابلة له من السيطرة الاستعمارية البرتغالية خلال القرنين السابع والثامن عشر. وجدير بالذكر أن الاستعمار البرتغالي في هذا الجزء من القارة الإفريقية كان عنيفا ومدمراً، وكان مصمماً على أن يضرب المسلمين أينما وجدوا، وأن يستولي على ممتلكاتهم وأراضيهم ويسيطر على تجارتهم، بل ويفرض عليهم اعتناق الديانة المسيحية. غير أن استخدام الحكام العثمانيون، بعد سيطرتهم على مسقط والخليج العربي في أوائل القرن السابع عشر، لبحارين وملاحين متمرسين لبناء قوة بحرية أخذت تهدد التواجد الاستعماري البرتغالي في الجزء الغربي من المحيط الهندي. وكان لابد أن تلفت الروابط التاريخية والتجارية والدينية والثقافية أنظار حكام عمان إلى شرق إفريقيا.

ولنا أن نسأل، ما هي الأوضاع العامة لسواحل شرق إفريقيا قبل الاحتلال البرتغالي؟ ما هي الدوافع الحقيقية وراء التواجد الاستعماري البرتغالي في مياه شرق إفريقيا؟ كيف واجهت مدن الساحل هذا الغزو، وبأي قدر من النجاح؟ ما هي جذور التحدي العماني للبرتغاليين؟ وأخيرا، كيف نجح العرب العمانيون في تحرير الساحل الشرقي لإفريقيا وإلحاقه بمسقط؟. هذه هي الأسئلة التي ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنها.

1- الساحل الشرقي لإفريقيا قبل الغزو البرتغالي:

استفاد العرب ومعهم الهنود والشيرازيون مئات السنين من الرياح الموسمية التجارية التي كانت تهب على المحيط الهندي، حيث ساعدتهم على الوصول إلى جزر وسواحل شرق إفريقيا منذ أوائل القرن الثامن الميلادي[1] والإقامة فيها. فأنشئوا عليها مدنا ودويلات مزدهرة تشترك في التجارة الإقليمية والمحلية، ولكنها تكاد تكون مستقلة بعضها عن البعض الآخر من الناحية السياسية[2].

وبحلول عام 1500، كانت هذه المدن لا تزال تنعم برفاهية ورخاء اقتصادي ومادي كبير نتيجة لانتعاش تجارة الذهب والعاج[3] والرقيق بينها وبين الخليج العربي وبلاد الهند وفارس. وقد شهد الرحالة العرب أمثال المسعودي الذي زار شرق إفريقيا في القرن العاشر مع التجار المسلمين وابن بطوطة من بعده الذي زار مدينة كيلوا[4] وممباسا عام 1331، بالمستوى العالي الذي بلغته حضارة الساحل إبّان تلك الحقبة[5]. وقد تجلت مظاهر هذه الحضارة في الأبنية الحجرية وقصور الحكام والمحال التجارية المتنوعة بالإضافة إلى المزارع الواسعة واستخدام أنظمة متقنة للصرف الصحي وتوفير إمدادات منتظمة من المياه والمواد الغذائية للسكان.

وعلى الرغم من انحدار سكان مدن ودويلات الساحل من مجموعات عرقية مختلفة، تدين معظمها بالولاء لمواطن انحدارها الأصلية ، وقيامها بتجزئة الساحل سياسيا، فقد عوض عنها–مع مرور الزمن– والى حد كبير ظهور مجتمع منسجم ثقافيا واجتماعيا، امتزج فيه بدرجات متفاوتة الدم الإفريقي، وينتمي إلى قبائل البانتو، بالدم العربي (أكثرهم من العمانيين الذين سيتزايد عددهم كثيرا في القرنين الثامن والتاسع عشر) والدم المسمى الشيرازي، عرف فيما بعد بالمجتمع السواحيلي(أهل الساحل)[6] الذين أصبحت لديهم لغة خاصة بهم، سرعان ما تطورت لتصبح لغة التعامل في الساحل كله، هي اللغة السواحيلية[7].

ومع مرور الوقت، أقامت هذه المدن علاقات تجارية مع المناطق الواقعة خلفها، حيث معظم السكان من قبائل البانتو الإفريقية، فتعاون زعماؤها وحكامها مع تجار الساحل في تنشيط التجارة التي كانت تعتمد بدرجة كبيرة على تصدير العاج والرقيق وبقدر أقل الذهب وشمع النحل والعنبر وجـــلود الحيوانات وتستورد في المقابل المنتجات المصنوعة كالمنسوجات القطنية والأقمشة الحريرية والأدوات النحاسية والمعدنية والخرز الزجاجي بالإضافة إلى البهارات والتوابل وكل ما تنتجه الهند وبلاد فارس والخليج العربي، وهذا كله يتم عن طريق المعاملات التجارية التي كانت تربط بينهما[8].

تجدر الإشارة هنا، أن هذه العلاقات التجارية كانت مع المناطق الواقعة خلف الساحل مباشرة، وليس على مسافات بعيدة نحو الداخل (منطقة البحيرات الكبرى وحوض الكونغو). لأنه حسب المؤرخ رولاند أولفر Roland Oliver لم يسجل للعرب وسكان الساحل (السواحيليين) أي توغل للمناطق الداخلية البعيدة قبل عام 1700.[9]

غير أنه لم يقدر لهذه الحالة من الرفاهية والاستقرار أن تبقى طويلا، فالرخاء الذي نعمت به مدن كيلوا وماليندي وزنجبار[10] وبانجاني Pangani وباغامويو Pagamoyo وبمبا وممباسا وبيت وغيرها من المدن الساحلية طوال القرون السابقة، توقف مع نهاية القرن الخامس عشر، كما أن نفوذها السياسي على الساحل والجزر المجاورة له، وهي مناطق مهمة تجاريا، قد اخذ في الانحسار عشية الغزو البرتغالي.

وحسب المصادر التاريخية، فإن سرعة تعاقب الحكام ونمو العلاقات العدائية وكثرة الفتن الطائفية والشقاقات الداخلية بين مدن ودويلات ساحل شرق إفريقيا هي التي شجعت على تدخل القوى الأجنبية ومحاولتها السيطرة على هذا الجزء الهام من إفريقيا[11].

1- الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا:

شهد مستهل القرن السادس عشر قدوم البرتغاليين الذين قاموا بغزو المدن الساحلية لشرق إفريقيا وسلب العرب والهنود ما كانوا يتمتعون به من سيطرة تجارية وسياسية على المحيط الهندي، مما تسبب في فقر العديد منهم بالإضافة إلى خراب المدن الساحلية وتدهورها. واستمر الحكم البرتغالي الاستعماري الذي كان عنيفا وقاسيا قرابة القرن ونصف القرن قبل أن ينجح السكان المحليون، بمساعدة أئمة[12] عمان، الذين كانوا يعتمدون على ملاحين متمرسين في قيادة السفن البحرية في طرد البرتغاليين إلى الجنوب من نهر روفوما.

وقد شرع البرتغاليون في رحلاتهم الاستكشافية الاستعمارية سنة 1415، باحتلالهم مدينة سبتة المغربية التي كانوا يرون فيها مجرد مرحلة لاكتساح السواحل الإفريقية والوصول إلى مناطق إنتاج التوابل والعقاقير وغيرها، وذلك من أجل تخطي الوساطة الإسلامية التي كانت تحتكر طرق التجارة إلى الهند وآسيا هذا من جهة، ومن جهة ثانية الاتصال بغيرهم من المسيحيين للقضاء على حكم المسلمين(دولة المماليك والعثمانيين من بعدهم) والاستيلاء على ممتلكاتهم وأراضيهم[13].

وكان المشرف على تنفيذ هذا المخطط الكبير في بداية الأمر هو الأمير هنري الملاح، وهو ثالث أبناء يوحنا الأول ملك البرتغال الذي قاد حروب الاسترداد ضد العرب المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية ووحد البرتغال مع بداية القرن الرابع عشر. وقد بدأت سلسلة هذه الحملات في منتصف سنة 1498، حيث نجح أسطول بحري بقيادة فاسكو دي غاما في عبور رأس الرجاء الصالح والانحراف إلى الشمال بمحاذاة الساحل. فرسا أسطوله في مدينة الموزمبيق التي كانت تحت النفوذ السياسي لمدينة كيلوا، وهي الأراضي التي كان البرتغاليون يسعون لبلوغها[14].

وعلى حسب ما توفره مصادر هذه الفترة، أن مدن ودويلات الساحل الشرقي لإفريقيا رفضت استقبال البرتغاليين وقاومت كل محاولات الإنزال التي قاموا بها على مرافئها، باستثناء مدينة ماليندي التي كانت في خلاف سياسي كبير مع ممباسا وكيلوا، فقد رحب حاكمها بـــــ فاسكو دي غاما واستقبله بحفاوة كبيرة، وساعده على الوصول إلى الهند. وجدير بالذكر أن ماليندي، التي أبهرت البرتغاليين بتقدمها الاقتصادي والمادي، أصبحت الحليف الدائم والاستراتيجي للبرتغاليين في شرق إفريقيا، بل أن حاكمها أرسل أحد رعاياه مع أسطول دي غاما الذي كان في طريق عودته من الهند إلى البرتغال كسفير له في لشبونة[15].

وأياً ما كان الأمر، فإن هذه الرحلة الاستكشافية، في المقام الأول، تبعتها رحلات أخرى، وقد أعطت جميعها فكرة للبرتغاليين أن القوة هي السبيل الوحيد للسيطرة على الساحل الشرقي لإفريقيا، حتى تكون لهم مجموعة من الموانئ المناسبة تحصلوا منها سفنهم على المئونة التي تحتاجها في رحلاتها الطويلة نحو آسيا، وأن تصبح مثل هذه الموانئ نوعا من المحطات في منتصف الطريق بين البرتغال والشرق.

ومن الجدير بالذكر أن السياسة الاستعمارية البرتغالية في شرق إفريقيا، كانت تهدف إلى تحقيق غرضين أساسيين، هما[16]:

أولا: مصادرة الملاحة التجارية في المحيط الهندي ورأس الرجاء، عن طريق التحكم في النشاط التجاري لمدن ساحل شرق إفريقيا والخليج العربي (مثل القيود، الاحتكارات، التراخيص...الخ).

ثانيا: ضرب المسلمين والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم أينما وجدوا، وفرض الديانة المسيحية على المناطق التي يحتلونها.

ومع بداية سنة 1505، نجح أسطول بحري بقيادة فرانسيسكودي ألميدا Francisco de Almeida، الذي أصبح فيما بعد نائبا للملك في الهند، بعملية

الإنزال في مدينة كيلوا، فنهبوها واحرقوا منازل السكان وقاموا بتدمير السفن الراسية في مرافئها، كما عزلوا حاكمها وعينوا بدلا منه رجلا يدعى محمد أنكواني كحاكم باسم البرتغاليين، وبالتعاون معه، شرع أسطول دي ألميدا في بناء أول حصن للبرتغال في شرق إفريقيا، سيكون بمثابة القاعدة العسكرية التي تنطلق منها السفن البرتغالية للسيطرة على جميع مدن وجزر الساحل[17].

وفي العام التالي، ومع طلقات المدافع التي كانت تنطلق باستمرار من السفن البرتغالية قصد إشاعة الرعب بين السكان، تمكن البرتغاليون من إخضاع جميع المدن الساحلية واحتلالها. وهذا بالرغم من المقاومة الباسلة التي أبداها سكان الساحل، يعاونهم المئات من أبناء القبائل الإفريقية مستخدمين في معظم الأحيان أسلحة تقليدية كالحجارة والسهام[18].

وخلال فترة الاحتلال هذه التي دامت إلى غاية النصف الأول من القرن الثامن عشر، عانى سكان الساحل من أعمال التنكيل والتدمير وحرق المزارع والماشية، مع إرغام جميع حكام المدن[19] على دفع ضرائب سنوية لملك البرتغال. أما الإجراء الأكثر خطورة والذي أعتبر بمثابة العقاب المدمر فهو إلغاء تجارة المحيط الهندي (مصدر ازدهار سكان الساحل وتقدمهم) وتحويلها إلى التجار البرتغاليين الذين تحكموا في جميع الطرق التجارية الدولية والإقليمية ورخصوا لبعض السفن الهندية والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الإفريقية والأسيوية[20].

وكانت أحداث هذه التطورات التي شهدها المحيط الهندي قد وصلت إلى السلطان العثماني في اسطنبول، فأرسل على الفور أسطولا بحريا بقيادة مير علي بك إلى شرق إفريقيا، فاستقبلته جميع المدن الساحلية وتحالفت معه، باستثناء مدينة ماليندي التي فضلت الاستمرار في تحالفها مع البرتغاليين. وبوصول الأسطول العثماني إلى ممباسا في منتصف سنة 1588 ومحاولة جعلها قاعدة عسكرية تنطلق منها السفن العثمانية لمهاجمة ماليندي وباقي القواعد البرتغالية في شرق إفريقيا، رد عليهم البرتغاليون بإرسال أسطول

أكبر انطلق من الهند. غير أنه وللمفارقة، فقد تزامن التهديد البرتغالي مع هجوم قبائل الزيمبا الإفريقية المتوحشة، أكلة لحوم البشر. وعليه وجد سكان مدينة ممباسا وحلفاؤهم العثمانيون أنفسهم بين نارين لا علاقة بينهما، الأسطول البرتغالي من البحر، وقبائل الزيمبا من البر[21]. وقد أدى هجوم الزيمبا من الداخل إلى تدمير المدينة على الكامل ونهبها ونشر الفوضى والرعب بين السكان الذين فر الكثير منهم إلى السفن العثمانية والبرتغالية التي كانت في قتال عنيف فيما بينها، وانتهت المعركة بانتصار البرتغاليين الذين أسروا القائد العثماني والبعض من رجاله، ودخلوا إلى المدينة واستولوا عليها، ونصّبوا عليها حاكما جديدا يحكم باسمهم. في حين استمرت قبائل الزيمبا Zimba [22] في التحرك باتجاه الشمال، ولم يوقفهم عن التدمير والقتل سوى السيجيجو (قبائل إفريقية من داخل القارة) بمساعدة البرتغاليين[23].

إن نجاح البرتغاليين في القضاء على تمرد سكان الساحل والحملة العثمانية، أدى إلى تعزيز مكانتهم في شرق إفريقيا. ومن أجل المحافظة على هذه المكانة والتصدي لهجمات مماثلة في المستقبل، قرر البرتغاليون بناء حصن[24] في ممباسا لحماية مصالحهم في المحيط الهندي، تدل على فن عمارته وقوة تحصيناته الآثار الباقية إلى اليوم.

وباختصار، فإن البرتغاليين طوال فترة تواجدهم في شرق إفريقيا قد أخفقوا في وضع سياسة واضحة لإخضاع الساحل أو إدارته، أو محاولة التوغل نحو الداخل الذي بقي مجهولا إلى غاية قيام الإمبراطورية العمانية في زنجبار وتنشيط تجارة القوافل للمسافات الطويلة. وقد فسرت الدراسات الغربية هذا الإخفاق بأن المصالح البرتغالية الحقيقية كانت تتجاوز، منذ البداية، الساحل الشرقي لإفريقيا وتكمن في اتجاه الهند وآسيا. غير أن الحقيقة هي النقيض من ذلك، فالمقاومة المتصلة التي قادتها مدن ممباسا وكيلوا وزنجبار وغيرها، والتدخل العماني، هو الذي أدى إلى إنهاء الحكم الاستعماري البرتغالي.

2- التدخل العماني وتحرير الساحل:

أقام البرتغاليون في الفترة من 1505 إلى 1650 إمبراطورية استعمارية قوية في المحيط الهندي، وكان اهتمامهم الأساسي ينصب على مصادرة الملاحة التجارية والسيطرة عليها. ولم يكن لديهم أي اهتمام بتنمية المدن الساحلية التي أخضعوها. مما جعل هذه المدن، كما سبق وأن أوضحنا، تتمرد وتقاوم الوجود البرتغالي بصفة منتظمة ولا سيما ممباسا التي يبدو أنها تسلمت قيادة الكفاح من أجل التحرير.

وبحلول عام 1622، كانت البرتغال قد طُردت من مدينة هرمز[25] الفارسية. وفي عام 1650 من الساحل العماني جنوب الخليج العربي، الذي كانت تحكم مناطقه الداخلية أسرة اليعاربة التي أسسها الإمام ناصر بن مرشد عام 1624. ولم تتوقف انتصارات الحكام العمانيين عند هذا الحد، بل تمكنوا من طرد البرتغاليين فيما وراء الخليج العربي وتأمين طرق التجارة الواقعة شمال المحيط الهندي[26]. [xxvi] وفي غضون ذلك، كانت نداءات وشكاوى مدن ساحل شرق إفريقيا، من سوء معاملة البرتغاليين، قد وصلت إلى حكام عمان الجدد الذين طلب سكان الساحل مساعدتهم ضد السيطرة الاستعمارية البرتغالية.

وكان من الضروري أن تلفت الروابط التاريخية والدينية والتجارية، أنظار هؤلاء الحكام الجدد إلى منطقة شرق إفريقيا. وبالفعل وافق أئمة عمان على هذا الطلب، حيث لم يمض وقت طويل، حتى أرسل الإمام سلطان بن سيف عام 1655 عددًا من السفن العمانية لمساندة الحكام المحليين في جهودهم ضد البرتغاليين. وقد هاجمت الحملة العمانية عدة مواقع برتغالية في زنجبار وبيت، وتم على إثرها قتل وأسر عدد من البرتغاليين، وتعهد حكامها في المقابل بدفع الجزية لسلطان عمان. وعلى ضوء نجاح هذا الهجوم قامت ثورات تمرد في كل المدن الساحلية ضد حكم البرتغاليين. فرد البرتغاليون

عليهم بهجوم عنيف، تمكنوا من خلاله إخماد هذه الثورات ومعاقبة كل من تعاون مع العرب العمانيين[27].

وفي مطلع سنة 1660، هاجم أسطول عماني صغير مدينة ممباسا، لكنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى المدينة بسبب قوة الدفاعات البرتغالية التي كانت تتخذ من حصن يسوع مقرا لها. كما شن العرب العمانيون بين سنتي 1668–1669 حملات أخرى على المراكز التجارية والمواصلات البحرية البرتغالية امتدت جنوباً حتى بلغت مدينة الموزمبيق، وكان نجاحها محدودا بسبب انشغال حكام عمان بالفتن والقلاقل الداخلية. وقد انتهز البرتغاليون فرصة انشغال أئمة مسقط بأوضاعهم الداخلية، ليعيدوا إحكام سيطرتهم على ممباسا وفازا وبيت، وقرروا بعدها حكم هذه المدن، حكما مباشرا، ولم تتوقف محاولاتهم عند هذا الحد، بل واصلوا غاراتهم على المدن التي تحالفت مع العمانيين[28].

وفي أوت 1678، قاد نائب الملك البرتغالي بيدروا دالميدا قوة كبيرة انطلقت من غوا في الهند، فهاجم مدينة باتا، ونهبها واستمر في حصارها إلى غاية منتصف سنة 1679، حيث اضطر إلى الانسحاب بعد ظهور سفن عمانية أرسلها الإمام سيف بن سلطان الذي خلف والده في الحكم عام 1668.[29] لكن أسطول دالميدا لم ينسحب كليا من المدن الشمالية، فقد تمكن من الاستيلاء على مدن لامو وسيو وماندا وبيت، واستخدم البرتغاليون في عملية الاستيلاء، وسائل قمعية قاسية، فقبضوا على حكامها وقطعوا رؤوسهم، ونهبوا محلات التجار وقصور الحكام، وصادروا كل الثروات التي يمكن أن تحمل على ظهور السفن لترسل إلى لشبونة.

ولم تثن الهزائم العسكرية التي لحقت بالبرتغاليين فيما بين سنة 1660 وسنة 1679. ففي سنة 1686، قاموا بغارة ثانية على مدينة باتا، فتمكنوا من دخولها وأسر حاكمها ومعه اثنا عشر من مستشاريه وأرسلوا إلى غوا. كما نجحوا في منتصف سنة 1694 في القضاء على تمرد قادته جزيرة

بمبا[30] Pemba، وتمكنوا من طرد العرب العمانيين من سواحلها ومن خليج لامو[31].

إلا أن السنوات التالية شهدت أكبر تحد من جانب سلاطين عمان. ففي شهر مارس سنة 1696، أرسل الإمام أسطولا بحريا مكونا من سبع سفن حربية كبيرة تحمل عددا من المدافع وثلاثة آلاف رجل، لمهاجمة ممباسا، وبمساعدة سكانها، دخلوا المدينة بسهولة ثم فرضوا الحصار على حصن اليسوع مقر الحامية البرتغالية[32].وبالرغم من وصول الدعم من حليفة البرتغال ماليندي، وأربعة سفن برتغالية من قاعدتهم في غوا الهندية والتي تمكنت، رغم الحصار الشديد، من إمداد وإرسال بعض المؤن للتخفيف عن المحاصرين في الحصن، إلا أن الحامية البرتغالية لم تستطع مواصلة المقاومة، نتيجة انتشار الأمراض وسوء التغذية، ففضلت الاستسلام وتسليم الحصن للعمانيين مع نهاية شهر ديسمبر سنة 1699 بعد حصار دام أكثر من سنتين ونصف[33].

وتزامن هذا مع وصول حملة برتغالية أخرى انطلقت من الموزمبيق وكانت تحمل أوامر بالاشتباك مع العمانيين واسترجاع المدينة، إلا أن قائدها فوجئ بالعلم العماني الأحمر يرفرف في مدينة ممباسا. وقد استطاع العمانيون من خلال هذه الحملة قتل أكثر من 1000 برتغالي بالإضافة إلى 5000 من السواحيليين والهنود الموالين لهم[34].

تجدر الإشارة هنا أنه في هذه الأثناء كان نشاط السفن الانجليزية والهولندية قد بدا واضحا في المحيط الهندي، وقد اتجهت هذه التطورات في غير صالح البرتغاليين الذين كانوا منشغلين بحروبهم في شرق إفريقيا. وكان الانجليز مع نهاية سنة 1580 قد عبروا رأس الرجاء. وفي سنة 1591، رست ثلاث سفن بريطانية في زنجبار من أجل التزود بالمؤن والمياه، وكان هدفها تتبع طريق فاسكو دي غاما والوصول إلى الهند[35]. أما الهولنديون فقد كانوا يشاركون منذ وقت طويل في التجارة الشرقية كوكلاء في السفن

الأوروبية (الاسبانية والبرتغالية)، إلا أنهم صمموا مع نهاية القرن السادس عشر، بمساعدة حكومتهم في أمستردام، على الوصول إلى الشرق الأقصى بمفردهم، وتمكنت سفنهم عام1607 من حصار البرتغاليين في حصن الموزمبيق استمر عدة أشهر قبل أن يضطرهم المرض ونقص المئونة إلى الانسحاب[36]. وبإيجاز، فقد أدت أعمال القرصنة والغارات التي كانت تشنها السفن الانجليزية والهولندية[37] إلى إرهاق البحرية البرتغالية التي كان نشاطها في النصف الأول من القرن السابع عشر قد حسم في الهند والخليج العربي، بعد أن أخذت شركتا الهند الشرقية الهولندية The Dutch East India Company والانجليزية الإشراف رسميا على المواصلات البحرية في المحيط الهندي ونقل منتجات الشرق إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء.

كان في سقوط مدينة ممباسا، وحصنها، بداية لتوسع عربي عماني في شرق إفريقيا والتمهيد لتأسيس إمبراطورية عربية عمانية على أنقاض الإمبراطورية البرتغالية ستكون لها السيادة على المحيط الهندي طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد بدأ العرب العمانيون هذا التوسع، بتشجيع من السكان المحليين، في تحرير بقية مدن الساحل وطرد البرتغاليين منها. وتم تعيين حاكم عماني اسمه ناصر بن عبد الله على مدينة ممباسا، خضعت لحكمه فيما بعد بقية المدن والجزر المجاورة.

وقد حاول البرتغاليون العودة مرة أخرى إلى ممباسا، وتكررت محاولاتهم في سنوات 1703 و1710. واستمروا في المحاولة في السنوات التالية، حتى تمكن قائدهم لويس سامبويو من السيطرة على طول الساحل من باتا إلى مدينة كيلوا، وحصوله على تقارير تفيد بأن سكان ممباسا قد تمردوا عن حاكمهم العماني وهم في استعداد لاستقبال البرتغاليين والتعاون معهم ضد العمانيين ومؤيديهم. ومن بيت تحرك البرتغاليون لإخضاع ممباسا واحتلالها من جديد، وقد نجحوا في العودة إلى المدينة والسيطرة عليها لفترة وجيزة فيما بين سنتي 1728 و1729، منتهزين فرصة انشغال أئمة مسقط بالمنازعات الداخلية، فاستسلم الحصن والمدينة للقوات البرتغالية المدعمة من

الحكام السواحيليين الذين خلعوا من قبل من طرف حاكم ممباسا العماني. على أن عودة البرتغاليين وحلفائهم لم تستمر طويلا. فقد تمكن سكان المدينة السواحيليين، بمساعدة ثلاثة سفن حربية عمانية، من حصار البرتغاليين في حصن اليسوع لعدة أسابيع، قبل أن يقنعهم اشتباك مسلح مع بداية عام 1730 بضرورة الاستسلام مقابل السماح لهم بالإبحارإلى الموزمبيق[38]. ولم يبق لهم من ممتلكاتهم في شرق إفريقيا، بعد هذا التاريخ، سوى المنطقة التي تقع جنوب نهر روفوما والتي سميت فيما بعد بإفريقيا الشرقية البرتغالية (الموزمبيق الآن).

خاتمة:

وبناء على ما تقدم، نستنتج أنه كان للعرب العمانيين، بمساعدة سكان الساحل السواحيليين، دور كبير في تحرير ساحل شرق إفريقيا من السيطرة الاستعمارية البرتغالية. وعليه، أصبحت كل المناطق الواقعة بين الموزمبيق جنوباً ومقديشو شمـــالاً تحت نفوذ أئمة عمان، الذين كان استمرار الحرب الأهلية في بلادهم حـــائلاً بينهم وبين ممارسة السلطة الفعلية في شرق إفريقيا. ومن ثم عُهد بحكومة المدن الساحلية المهمّة كممباسا وزنجبار وكيلوا وباغامويو إلى شيوخ عمانيين من أجل إخماد الثورات الداخلية، والحكم باسمهم. حيث تمكن هؤلاء، مع مرور الوقت، من أن يجعلوا من أنفسهم في الواقع حكـــاماً مستقلين، ليدخل ساحل شرق إفريقيا مرة أخرى عصراً جديداً من تاريخه.

كان هذا هو ما سمح للعرب العمانيين بأن يصبحوا سادة شرق إفريقيا وحماتها. حيث زاد التجار السواحيليون من نشاطهم على الساحل، وفي الوقت نفسه نمت الأموال التجـــارية الهندية في كيلوا وممباسا. وبحلول الثمانينيات من القرن الثامن عشر كانت هناك بالفعل مشروعات تجارية رائدة قام بها السواحيليون مع تجار الداخل، بعد أن أصبحت أسرة آل بوسعيد(بعد نجاح أسرة اليعاربة في تحرير عمان وساحل شرق إفريقيا من البرتغاليين،

دخلت البلاد في نزاعات قبلية وحرب أهلية، تمكنت القبائل العمانية من خلالها في عام 1944 من إنهاء حكم أسرة اليعاربة ومبايعة أسرة آل بوسعيد التي مازالت تحكم عمان إلى يومنا هذا) الحاكم الفعّلي في عمان، وهذا ما يشهد عليه انتعاش الاقتصاد التجاري للساحل السواحيلي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وفي الوقت نفسه وفرت زنجبار، التي ستصبح أكثر قواعد آل بوسعيد استقراراً وولاءً لهم في شرق إفريقيا، كل الدعم السياسي والاقتصادي لهؤلاء الحكام الجدد لتوسيع نفوذهم على الساحل، ثم اتخاذهم لها بعد ذلك عاصمة لسلطنتهم. وبفضل جهود السلطان سعيد(1806-1856) وحكمته الفائقة، أصبحت زنجبار(نقل السلطان سعيد عاصمته من مسقط إلى زنجبار عام 1837واستقر بها نهائيا في عام 1840) أكبر مركز للتجارة الدولية العابرة للمحيطات في شرق إفريقيا والجزء الغربي من المحيط الهندي. فقامت إمبراطورية عربية إسلامية متغلغلة في سواحل شرق إفريقيا ومناطقها الداخلية الشاسعة، استمرت هيبتها التجارية والسياسية إلى غاية فرض الحكم الاستعماري الأوروبي(البريطاني والألماني) على المنطقة مع أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر.

قائمة البيبليوغرافيا:

1-المصادر:

1- ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1959.

2- المغيري (الشيخ سعيد): **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**، مطبعة وزارة التراث القومي والثقافة، عمان ، 2001.

3- المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين) : **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج3، تحقيق محمد محي الدين، دار الرخاء، القاهرة، 1946.

4- السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان: **مذكرات أميرة عربية**، ط 9، ترجمة عبد المجيد القيسي، مطبعة وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2006.

2-المراجع:

أ- العربية:

1- أحمد حمود المعمري: **عمان وشرق إفريقيا**، ترجمة محمد أمين عبد الله، مطابع سجل العرب، عمان، 1979.

2- أوغوث، ب.أ: **تاريخ إفريقيا العام**، دار حسيب درغام وأولاده للطباعة، لبنان، 1997.

3- جيمس، دفي: **البرتغال في إفريقيا** , ترجمة جاد طه, القاهرة،1961.

4- عائشة، علي السيار: **دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا في الفترة من 1624-1741**، دار القدس للنشر، بيروت، 1973.

5- فالح، حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات العربية، 1997.

ب- الأجنبية:

1- Alpers, E.A: Ivory and Staves in East-Central Africa to the later 19th century, Heinemann, London, 1975.

2- Copland, R: East Africa and its Invaders, Oxford university press, London, 1968.

3- Hollingsworth, L.H: The Asians of East Africa, Oxford university press, London, 1960.

4- Marsh, Zoe(ed): East Africa Through Contemporary Records, Cambridge University Press, London, 1961.

الهوامش :

[1]- يرجح المؤرخون أن استيطان العرب في شرق إفريقيـــا يعود إلى العصور القديمة أي إلى ما قبـــل التاريخ الميـــلادي, حيث وصلوا حتى مدينة سوفالا جنوبي نهر الزمبيزي, كما أنهم اكتفوا في هذه الفترة بالاستقرار المؤقت على الساحل ولم يحاولوا التوغل إلى الداخل مكتفين بإنشاء مراكز تجارية لتصدير المنتجات الإفريقية كالعاج والرقيق إلى الإمبراطوريات القديمة كالإمبراطورية الرومانية والفارسية. وقد اختلفت التفسيرات التاريخية حول أسباب ودوافع الهجرة العربية إلى سواحل شرق إفريقيا، فبالإضافة إلى الأسباب الاقتصادية والتجارية من خلال الاستفادة من الموقع الاستراتيجي و الجغرافي (قرب سواحل الخليج العربي من سواحل شرق إفريقيا حيث لا تتجاوز على سبيل المثال المسافة بين زنجبار وعدن 1700 ميل، بالإضافة إلى حركة الرياح التجارية الموسمية التي تهب على المحيط الهندي)، توجد أسباب إستراتيجية ودينية وسياسية ، كالمنازعات الدينية التي كانت تشهدها الجزيرة العربية وكذلك الوضعية السياسية في عمان وبعض مناطق الخليج العربي خاصة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وكذلك الثورات ذات الطابع السياسي المضادة للحكم الأموي والعباسي، كلها شجعت بعض القبائل العربية على الهجرة إلى مناطق آمنة وكانت شرق إفريقيا هي المكان المألوف والمناسب لاستقرارها. والى جانب هذه الهجرات العربية، كانت هناك بعض الهجرات الفارسية الشيرازية وكذلك تعود أسبابها حسب المصادر التاريخية إلى أسباب دينية واقتصادية وسياسية، وقد استقر معظمهم في مدينة كيلوا مع بداية القرن العاشر الميلادي. انظر للمزيد من التفاصيل/ جمال زكريا: **استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا**، مجلة حوليات الآداب، جامعة عين شمس، العدد 10، ماي 1967. حسن إبراهيم حسن: **انتشـــــار الإسلام والعروبة فيمـــــا يلي الصحراء الكبـــــرى** , معهد الدراسات العربية العالمية , القاهرة 1957.ص ص:126-127

[2] - Copland, R: ***East Africa and its Invaders***, Oxford university press, London, 1968, pp:16-17.

[3]- يستخدم عاج الفيلة في صناعة أدوات الزينة وبعض السلع الترفيهية، كالأمشاط ومفاتيح البيانو كرات البلياردو. وكانت الطبقات الميسرة في الهند والدول الغربية تتهافت عليه.

[4]- جزيرة صغيرة تقع على ساحل المحيط الهندي، وهي تبعد عن العاصمة دار السلام بنحو 200كلم إلى الجنوب. وكانت كيلوا عاصمة مدينة امتدت سلطتها السياسية –حتى قدوم البرتغاليون– من سوفالا إلى نهر روفيجي، وكانت أيضا من أكبر مدن شرق إفريقيا ازدهارا ورخاء لاحتكارها تجارة الذهب الذي كان يصل إلى سوفالا من مناجمه فيما يعرف اليوم بالموزمبيق وزيمبابوي.

[5]- أنظر في تفاصيل وصف المسعودي/ **المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين)** : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة، 1946. وفي تفاصيل ابن بطوطة أنظر/ ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة،**

[6]- الحضارة السواحيلية هي مزيج من عادات وقيم شعوب كثيرة من داخل القارة ومن بلدان أخرى مطلة على المحيط الهندي، انصهرت معا في بوتقة حضرية كانت بمثابة إطار لها.

[7]- تنتشر في شرق إفريقيا ويتكلمها ثلثي سكان المنطقة. يمتد نطاق انتشارها إلى جمهورية الصومال وكينيا وأوغندا وتنزانيا والموزمبيق وشرقي الكونغو(كينشاسا) وجزر القمر وشمالي ملاوي وتتكلمها كذلك أقسام صغيرة في زامبيا. وأصل الكلمة يأتي من اللغة العربية للتعبير عن أصل نشأة اللغة على الساحل أو السواحل. وتتقسم آراء العلماء والباحثين بشأن تاريخ اللغة، فيرى البعض أن أصلها يرجع إلى شعب يسمى السواحلي عاش في فترة الحكم الشيرازي(975بعد الميلاد) فيما بين مدينة كيلوا وباجاميو. ويرى البعض الآخر أنها نشأت في خليج لامو ثم امتدت بعد ذلك جنوباً، وفي منطقهم أن المهاجرين العرب تزوجوا من الأفريقيات واستعملوا كلمات عربية وكلمات من لغات البانتو للحديث اليومي مع زوجاتهم وأولادهم، ومن ثم ظهرت السواحيلية من هذا الخليط اللغوي. ويرى فريق آخر أن هذه اللغة هي خليط من اللغات العربية والفارسية ولغات أوروبية أخرى. ويرى فريق من الباحثين في جامعة دار السلام أن أصل اللغة أقدم من هذه الآراء جميعاً فقد نشأت على ألسنة الأفريقيين الذين عاشوا في كينيا وتنجانيقا وزنجبار أثنـــــاء رحلاتهم ومبادلاتهم التجارية عبر المحيط الهندي، وان اللغة تداولت على ألسنهم قبل وصول العرب والإغريق والبرتغاليين. انظر للمزيد/

Whiteley, H: Swahili: ***The national language of Tanzania***, in Erik, Svendsen and Teisen, M: self-reliant Tanzania, Tanzania Publishing House, Tanzania, 1969.pp: 111-112.

[8] - Alpers, E.A: ***Ivory and Staves in East-Central Africa to the Later 19th century***, Heinemann, London, 1975, p-p:44-58.See Also Hollingsworth, L.H:***The Asians of East Africa***, London,1960, p-p: 16-23.

[9] - Oliver, Roland: ***The East Africa interior***, Cambridge University press, Cambridge, 1977, pp:621-622

[10]- أصل التسمية فارسي وهي تتكون من كلمتين(زنج–بار) أي ساحل الزنج، ومع مرور الوقت أصبحت تسمى بكلمة واحدة "زنجبار".

[11] - Alpers, E.A: op, cit, p: 40.

[12]- تعتنق القبائل العمانية المذهب الإباضي الذي تتمثل نظريته السياسية في نظام الحكم بوجوب وجود إمام تنتخبه الجماعة ليتولى أمور الحكم والدفاع عن البلاد، وحين أصبحت أسرة السيد سعيد حاكمة لعمان سنة 1744 اختارت لقب السيد (السلطان) مضافا إلى لقب الإمام. أنظر للمزيد/ عبد الله بن إبراهيم التركي: **قيام نظام الإمامة في عمان** (1913–1920)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 46، 1430ه، ص:283. وراجع أيضا/السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان: **مذكرات أميرة عربية**، ط 9، ترجمة عبد المجيد القيسي، مطبعة وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2006، ص: 34.

[13]- جيمس، دفي: **البرتغـــال في إفريقيـــا** , ترجمـــة جـــاد طـــه, القاهرة،1961, ص ص:62–63.

وراجع أيضا

-Strandes, Justus: ***The Portuguese in East Africa***, Nairobi, EALB, 1968, p-p :1-30.

[14] -Ibid.

[15] -Ibid , p : 28.

[16]- أحمد، بوشرب: **أسباب ومراحل اكتشاف البرتغاليين للسواحل الإفريقية خلال القرن 15**، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31، بغداد، 1987، ص ص:61-62.

[17]- جيمس، دفي: مرجع سابق، ص: 65. وراجع أيضا/ فالح، حنظل: **العرب والبرتغال في التاريخ**، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات العربية، 1997، ص: 148.

[18] - Strandes, Justus: op, cit, p-p:43-66.

[19]- على سبيل المثال كانت تدفع مدينة كيلوا لوحدها ما قيمته 2000 من العملة الذهبية سنويا، كما وافق حاكمها على رفع العلم البرتغالي مكان الراية المحلية. راجع/ أحمد حمود المعمري: **عمان وشرق إفريقيا**، ترجمة محمد أمين عبد الله، مطابع سجل العرب، عمان، 1979، ص: 50.

[20]- المرجع نفسه، ص ص: 51-52. ويمكن الرجوع أيضا إلى/Strandes, Justus: op, cit, p :110

[21]- جيمس، دفي: مرجع سابق، ص: 65.

[22]- جماعات الزيمبا Zimba، كما ذكر من قبل، من أكلة لحوم البشر، وهم فرع من محاربي اللوندو، بارعين في تقنيات الصيد ومطاردة الحيوانات المفترسة، مكان استقرارهم الأصلي هو جنوب نهر الزمبيزي، وقد ضلوا لعدة سنوات يتنقلون في اتجاه الشمال على طول الساحل، فدمروا كل المدن التي مروا بها. وفي عام 1588، هاجموا مدينة كيلوا وذبحوا معظم سكانها، ونهبوها على الآخر. كانت نهايتهم على يد البرتغاليين وقبائل السيجيجو المحلية بعد مهاجمتهم لمدينة ممباسا. انظر للمزيد من التفاصيل/ Alpers, E.A: op, cit, p-p:58-65.

[23] - Ibid, p-p: 58-64.

[24]- أعتبر من أعظم الحصون البرتغالية في شرق إفريقيا وأمنعها بعد حصن الموزمبيق, وقد بناه المهندس الايطالي الشهير جون بابتيست كايراتو John Baptist Cairatto بين سنتي 1593 و 1594 في مدينة ممباسة الساحلية, وصار يعرف فيما بعد بحصن يسوع Fort Jesus. أنظر/ المغـيري (الشيخ سعيد): **جـهينة الأخبـار في تـاريخ زنجبار**, مـطبعة وزارة التراث القـومي والثقافة, عـمان , 2001, ص ص: 196-186.

[25]- مدينة إستراتيجية تقع في مدخل الخليج العربي على الضفة الشرقية، احتلها البرتغاليون عام 1511، وبمساعدة الأسطول الانجليزي تمكن شاه فارس من تحريرها وطرد البرتغاليين منها.

[26]- عائشة، علي السيار: **دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا في الفترة من 1624-1741**، دار القدس للنشر، بيروت، 1973، ص – ص: 44-60.

[27]-[xxvii]-Copland, R: op, cit, p:66.

[28]- عائشة، علي السيار: مرجع سابق، ص- ص: 96-98.

[29]- أحمد حمود المعمري: مرجع سابق، ص ص: 66-67. المغـيري (الشيخ سعيد): مرجع سابق، ص ص: 192-196.

[30]- جزيرة تقع بالمحيط الهندي ومحاذية لجزيرة زنجبار .تبلغ مساحتها 380 ميلا.

[31]- المغـيري (الشيخ سعيد): مرجع سابق، ص ص: 192-193. وراجع أيضا/ Copland, R: op, cit, pp:67-68.

[32]- فالح، حنظل: مرجع سابق، ص ص: 523-524.

[33] -Copland, R: op, cit, p:68.

[34]- جيمس، دفي: مرجع سابق، ص: 66.

[35] -Copland, R: op, cit, pp:52-53.

[36]- للمزيد من التفاصيل حول أهداف التواجد الهولندي في المحيط الهندي أنظر p-p :1- Hollingsworth, L.H: op , cit , 30

[37]- تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1601، أما شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد تأسست قبلها بسنة، بعد أن تحصلت على براءة الملكة الانجليزية في ديسمبر 1600 تمنحها حق احتكار التجارة في المنطقة الواقعة إلى الشرق من رأس الرجاء بالإضافة إلى شراء الأراضي في الهند وتملّكها.

[38]- عائشة، علي السيار: مرجع سابق، ص ص: 102-103.